إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

من قضاة الإسلام : ابن خلدون

للدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد

أثمر الفكر الاسلامى فى ابن خلدون نتاجا انسانيا ، فكان له فضل السبق فى تأسيس علم الاجتماع وأسهم بدور كبير فى علم التاريخ وفلسفته والسياسة والاقتصاد .

وقد كانت هذه الجوانب من شخصية ابن خلدون محل دراسات بل وأطروحات علمية . ويهمنا أن نسلط الأضواء عليه كقاضى قضاة المالكية فى مصر ومدى اسهامه فى الاصلاح القضائى فى عصره ، وقد ترك لنا ابن خلدون ترجمة ذاتية رسمت الخطوط الكبرى من حياته تعين على دراسته فى ضوء التحليل العلمى الحديث .

معالم حياته :

ـ ولد فى أول رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) بتونس عبد الرحمن بن محمد (ابن محمد بن محمد الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن) بن خلدون ، ويكنى أبو زيد ، واشتهر بابن خلدون نسبة الى جده التاسع ، ويرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمانية فى حضر موت ، ونسبة الى وائل بن حجر ، ويعتمد فى ذلك على رواية العلامة النسابة الأندلسى الامام ابن حزم (المتوفى ٤٥٦ هـ) عند الكلام فى دخول رأس هذه الأسرة الى الأندلس والمغرب مع الغزاة الفاتحين . ولقد كان لهذه الأسرة أثر كبير فى السياسة والعلم فى الأندلس وقد وصفها المؤرخ ابن حيان (من رجال القرن الخامس الهجرى) فقال . « بيت ابن خلدون الى الآن فى اشبيليه نهاية فى النباهة ، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية » .

ـ عزف والد ابن خلدون (أبو عبد الله محمد) عن السياسة

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واضطرابها فقد ارتفع فيها من أفراد أسرته من وصل الى امارة اشبيلية وانتهى الأمر بقتله تعنى به كريب ابن خلدون — وآثر حياة الدرس والعلم ، يقول لنا ابن خلدون عن أبيه « نزع عن طريقة السيف والخدمة الى طريقة العلم والرباط . فقرأ وتفقه ، وكان مقدما فى صناعة العربية وله بصر بالشعر وفنونه » . وكان ذلك الأب هو المعلم الأول فى حياة ابن خلدون فأحفظه القرآن وفقه فى القراءات السبع وأسهم معه علماء الأندلس الذين نزلوا بتونس بعد انهيار الأندلس فى القرن السابع الهجرى فى تعليم ابن خلدون شيئا من التفسير والحديث والفقه المالكى الذى هو المذهب السائد فى المغرب العربى . ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه فى كل علم وفن ، ويعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ولكن تلحظ أن اثنين من أساتذته كان لهما أكبر الأثر فى ثقافته الشرعية واللغوية والحكمية : أحدهما ، محمد بن عبدالمهيمن بن عبدالمهيمن الحضرمى أمام المحدثين والنحاة بالمغرب وقد أخذ عنه الحديث ومصطلح الحديث والسيرة وعلوم اللغة ، والثانى : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلى شيخ العلوم العقلية التى تشمل المنطق وما وراء الطبيعة والعلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والموسيقى .

— وعكف ابن خلدون على الدرس والتحصيل وشهد له أساتذته بالنبوغ والتفوق والاجازة فيها اطلع عليه ودرسه حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وفيها طوى بساط الموت والديه فى الفناء الكبير (الطاعون الجارف) بالنكبة التى حلت بالشرق والمغرب معا (٧٤٩هـ — ١٣٤٩م) ويشير اليها ابن خلدون بقوله (فيها ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله) وهاجر معظم العلماء والأدباء الذين أفلتوا من هذا الوباء الجارف من تونس الى المغرب الأقصى سنة ٧٥٠ فولى ابن خلدون وجهه شطر الوظائف العامة والسير فى الطريق الذى سار فيه جداه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الأول والثانى وكثير من قدامى أسرته فقضى ستة أعوام موظفا بفاس فعمل مع السلطان أبو عنان .

وكان ابن خلدون عضوا فى مجلسه العلمى وأحد كتابه وموقعيه وذلك فى الفترة من ٧٥٥ هـ الى ٧٥٨ هـ . وقد قضى بعد ذلك سنتين فى سجن فاس (٧٥٨ ـ ٧٦٠ هـ) لصلته بالأمير محمد صاحب بجاية المخلوع والذى كان أسيرا فى فاس .

وفى سنة ٧٦٠ أفرج عن ابن خلدون الوزير الحسن بن عمر وولاه وظائفه السابقة ، كما ولاه السلطان منصور بن سليمان فى نفس السنة وظيفة الكتابة وولاه السلطان أبو سالم فى شئون كتابة السر والانشاء والمراسيم ثم تولى خطة المعالم (٧٦٠ الى آخر ٧٦٢ هـ) . كما أبقاه الوزير عمر بن عبد الله على الوظائف السابقة (٧٦٣ ـ ٧٦٤ هـ) .

ـ رحل ابن خلدون الى الأندلس فى سنة ٧٦٤ بعد أن كتب الى صديقه : سلطانها محمد ووزيره ابن الخطيب بمقدومه ، ولما وصل ابن خلدون غرناطة اهتم السلطان والوزير بمقدمه واحتفيا به وأكرما مثواه ، ونظمه السلطان فى أهل مجلسه ، وقربه اليه وآثره بصحبته وأسماره ، واختصه فى العام التالى (سنة ٧٦٥ هـ) بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة ، فنجح فى تلك السفارة وتم عقد صلح بين سلطان الأندلس وملك قشتاله وانتظمت العلاقات السياسية بينهما فارتفعت مكانة ابن خلدون لدى سلطان الأندلس وأقطعه الأرض الخصبة يتبوء فيها فزاد رزق ابن خلدون واتسعت أحواله وطلب ابن خلدون من السلطان أن يسمح له باستقدام أسرته من قسطنطينه فسمح له . وشعر ابن الخطيب بأن سلطان الاندلس قد قدم ابن خلدون عليه لديه فدفعته عوامل الغيرة والتنافس بأن يقصى ابن خلدون وقدم السعايات الى السلطان وأيدها عن يد عمه فتقبلتها نفس السلطان ، وشعر ابن خلدون باعراض السلطان عنه ، فأدرك أنه لم يبق للبقاء موضع ، وقد وصلته فى الوقت ذاته رسالة من صديقه الذى حبس من

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أجله سنتين وهو الأمير أبى عبدالله محمد أمير بجاية ، يحيطه فيها أنه قد استرد ملكه ، وأنه يرغب فى مقدمه ، فاستأذن سلطان الأندلس فأذن له ، وشيعه مكرما .

وصل ابن خلدون الى بجاية عن طريق البحر فى منتصف ٧٦٦ هـ (١٣٦٤) فاستقبله أميرها وأهلها استقبالا عظيما ، وولاه أمير بجاية منصب الحجابة وهو أعلى منصب فى الدولة ويعادل منصب رئيس الوزراء فى عصرنا وقد وصف ابن خلدون سلطات المنصب فقال : « الاستقلال فى الدولة والوساطة بين السلطان وأهل دولته، لايشاركه فى ذلك أحد » . كما أن السلطان صرح له واختصه بالخطابة والتدريس فى أكبر مساجد ولاية بجاية (جامع القصبة) فجمع ابن خلدون بين يديه أكبر مناصب السياسة وأرفع مناصب العلم ، وتمكن من تدبير الأمور بحزم وعزم فعالج الفتن القائمة ، وتجول بين القبائل البدوية ونجح فى تحصيل الضرائب منها بصرامته ودهائه . وفى سنة ٧٦٧ هـ تمكن السلطان أبى العباس أحمد صاحب قسطنطينيه من قتل ابن عمه أبا عبدالله ودخل بجاية ظافرا يحدثنا ابن خلدون عن أثر ذلك فيقول : (وجاءنى الخبر بذلك وأنا مقيم بقصبة السلطان وقصوره ، وطلب منى جماعة من أهل البلد القيام بالأمر ، والبيعة لبعض الصبيان من أبناء السلطان ، فتفاديت من ذلك ، وخرجت الى السلطان أبى العباس، فأكرمنى وحيانى ، وأمكنته من بلده) ، فأكرمه أبو العباس ، وأقره على منصب الحجابة حينا ، ثم مالبث أن شك فيه ، فتنكر له ورغب عن خدمته ، فتوجس ابن خلدون خيفة منه ، واستأذنه فى الانصراف الى أحد الأحياء القريبة فأذن له ، ولكن عن له بعد ذلك أن يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة لصداقة بينه وبين أميرها حيث قضى سبع سنين (من منتصف ٧٦٧ الى منتصف ٧٧٤ هـ) فى الدسائس والمغامرات لحساب أبى حمو سلطان تلمسان ضد أبى العباس سلطان بجاية أولا ، ثم لحساب أبى فارس

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

عبد العزيز سلطان فاس ضد أبى حمو ثانيا، منها نحو سنتين (٧٧٤ ـ ٧٧٦ هـ) قضاها فى فاس بعيدا عن وظائف الدولة فى كنف الوزير ابن غازى ، ما عدا بضعة أشهر فى آخرهما قضاهما فى عهد السلطان أبى العباس أحمد .

ـ وفى ربيع سنة ٧٧٦ رحل ابن خلدون رحلته الثانية الى الأندلس تاركا أسرته بفاس ، وكان موضع ريبة من أمراء المغرب جميعا لدسائسه ، فما كاد ينزل ضيافة سلطان الأندلس ابن الأحمر حتى كانت ملاحقة أمراء المغرب له وخاصة بلاد فارس وطلبوا من ابن الاحمر تسليم ابن خلدون فأبى ، فطلبوا اليه أن يقصيه من أرضه الى المغرب فأجابهم لمطلبهم .

ـ عقد ابن خلدون العزم ـ وقد امتد أثر السياسة الى ايذاء زوجه وأولاده وحجبهم عنه ثم أقصاه عن الأندلس ، وقد نزل فى مرسى « هنين » لا يعلم أين يمضى؟ أن يتفرغ للقراءة والتأليف وأن يترك شئون السياسة ، لأن الأولى لاتقل فى ابراز الانسان فى عين معاصريه عن الثانية بل يمتد أثر الأولى الى الأجيال المقبلة (ليسهم فى تحقيق صالح المجتمع البشرى) وقد ساعد على نزوله فى تلمسان وجود شقيقه يحى فى خدمة أميرها أبو حمو وشفاعة الوسطاء لدى هذا الأمير للعفو عنه وتحقق رجائهم ، فنزل ابن خلدون فى قلعة ابن سلامة ووصل اليه زوجه وأولاده ، وعكف أربع سنوات من ٧٧٦ هـ ـ ٧٨٠ ينعم فيها بالاستقرار والهدوء وتفرغ فيها للدراسة والتأليف وأثمر مؤلفه التاريخى المشهور « العبر » وقدم لهذا المؤلف ببحث عام فى شئون الاجتماع الانسانى وقوانينه وحرف هذا البحث فيما بعد باسم « مقدمة ابن خلدون » .

ـ ولما عزم ابن خلدون على الرجوع الى مسقط رأسه تونس حيث وفرة المراجع التى تعينه على تهذيب كتابه « العبر » فكاتب سلطان تونس أبا العباس ـ الذى انتزع بجاية ـ قتل ابن عمه والذى

تنكر لابن خلدون فتنكر ابن خلدون له وقضى مدة طويلة فى الدسائس والمغامرات ضده يطلب الصفح والعفو ، فعفى عنه وأكرمه، ومكث فى تونس من ٧٨٠ هـ ـ ٧٨٤ ينقح كتابه « العبر » وأهداه الى السلطان أبى العباس . وقد عكر صفو ابن خلدون أمر السلطان أبى العباس لابن خلدون بالخروج معه لمقاتلة الخوارج عليه فى «توزر» فخرج معه مكرها ، ثم تأهب السلطان للخروج فى جيشه مرة أخرى فخشى ابن خلدون أن يعود السلطان الى استصحابه فى حملته ـ وقد عافت نفس ابن خلدون السياسية ـ فتعلل للسلطان بعزمه على قضاء فريضة الحج وتضرع اليه أن يخلى سبيله ، فأذن له وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه مرة أخرى ، فكانت الهجرة الأبدية وخرج الى مرسى السفينة فى حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودعونه بين مظاهر الحزن والأسى ، وركب البحر الى المشرق فى منتصف شعبان ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) .

ـ وصل ابن خلدون الى الاسكندرية بعد رحلة بحرية شاقة فى يوم عيد الفطر ولبث فيها شهرا، ووصل الى القاهرة فى أول ذى القعدة ٧٨٤ هـ ، وكانت القاهرة قبلة العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب ولها الشهرة الواسعة فى حماية العلوم والآداب ، وكان ابن خلدون يأمل أن يقضى أيامه فى مصر فى هدوء ودعة ويتمتع بقسط من الرعاية والحماية الممنوحة للعلماء . وقد سبق ابن خلدون الى مصر مؤلفه الضخم « العبر » ولا سيما مقدمته التى تضمنت من جدتها وروعة مباحثها وطرافتها أن أقبل على ابن خلدون العلماء والطلاب من كل صوب ، يقول ابن خلدون فى كبرياء وتواضع معا : « وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الافادة مع قلة البضاعة ولم يوسعونى عذرا » ويؤكد ذلك ما تشير اليه التراجم المصرية نفسها فيقول ابن تغرى بردى فى ترجمته لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة ،

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

واشتغل وأفاد» . ويقول السخاوى: « وتلقاه أهلها أى أهل مصر — وأكرموه وأكثروا ملازمته والتردد عليه ، بل تصدر للاقراء بالجامع الأزهر مدة » . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر ، ويبدو أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكى ، ويشرح نظرياته فى العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول وغيرها مما عرض اليه فى مقدمته . وكانت هذه الدروس خير اعلان عن غزير علمه ، وشائق بحثه ، وساحر بيانه، وكان ابن خلدون محدثا بارعا رائع المحاضرة ، يخلب ألباب سامعيه بمنطقه وذلاقته ، وهذا ما يحدثنا به معاصريه من أعلام الفكر والأدب المصريين فيقول لنا ابن حجر العسقلانى ، وقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا، فصيحا ، حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصا متعلقات المملكة» . وذكر الركراكى كما نقله عنه السخاوى « ان محاضرته اليها المنتهى » .

— خلا منصب التدريس بالمدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو ، وهى من مدارس المالكية فعينه السلطان فيه ، وشهد المجلس الأول لابن خلدون فى هذه المدرسة جمهرة من الأكابر والعلماء أرسلهم السلطان لشهوده ويقول لنا ابن خلدون عن أثر هذا المجلس « انفض هذا المجلس وقد شيعتنى العيون بالتجلة والوقار » .

— وفى أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦ هـ عين السلطان الظاهر برقوق ابن خلدون فى وظيفة قاضى قضاة المالكية بدلا من القاضى المعزول جمال الدين بن خير الاسكندرى . ويصف ذلك ابن خلدون فى سخرية « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية، فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين أمرائه ، فتفاديت من ذلك ، وأبى الا مضاءه » . ولقد كانت مناصب التدريس والقضاء دائما مطمع جمهرة الفقهاء والعلماء

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المحليين ، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها ابن خلدون المغربى الوافد دونهم . فاذا حمل الأمانة وأدى الرسالة وأصلح أحوال القضاء مما يسوده حينئذ من فساد واضطراب بعيد فى نظر الحاقدين الساعين الى ازالة المنصب معه الى جهل بالاجراءات وقد كثرت السعاية فى حقه والاغراء به حتى « أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة على حد تعبيره ووافق ذلك مصابه بالأهل والولد ، وقد تشفع فى احضارهم له وقد حجزهم سلطان تونس ليجبر ابن خلدون على العودة الى تونس ـ سلطان مصر ، ولكن السفينة التى كانت تحملهم أصابها قاصف من الريح فغرقت ، يقول لنا ابن خلدون : « وذهب الموجود والسكن والمولود ، فعظم المصاب والجزع ، ورجح الزهد ، واعتزمت على الخروج من المنصب فلم يوافقنى عليه النصيح ممن استشرته خشية من نكير السلطان وسخطه » ، ولم يمض وقت قليل حتى عزل من منصبه لأول مرة فى السابع من جمادى الأولى ٧٨٧ هـ ، أى أنه لبث فى المنصب نحو عام من ولايته ، فانقطع ابن خلدون الى الدرس والتأليف مع شغف النفس بالعودة الى المنصب .

ـ عينه السلطان أستاذا للفقه المالكى فى المدرسة « الظاهرية البرقوقية » فى سنة افتتاحها عام ٧٨٨ هـ ، وفى سنة ٧٨٩ هـ مضى لأداء فريضة الحج ، وبعد عودته وفى المحرم ٧٩١ هـ ولاه السلطان منصب كرسى الحديث بمدرسة « عمر غتمش » ، وفى ربيع الآخر من ٧٩١ هـ عينه السلطان شيخا « لخانقاة بيبرس » وهى تكية للصوفية ، وكان يشترط فى شيخها أن يكون عضوا فى هيئة المتصوفين فنزل ابن خلدون يوما واحدا بها ، وقيد من أعضائها قبل تعيينه شيخا لها حتى يتوافر فيه هذا الشرط بيد أنه لم يعرف فى تاريخه ـ أنه زاول التصوف العملى أو ركن الى الزهد والاعتكاف كما يفعل المتصوفون فى عصره ـ وكان أثر هذه المشيخة أن زاد رزق ابن

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

خلدون واتسعت موارده ، ثم عين في منصب القضاء للمرة الثانية في النصف الثاني من سنة ٨٠١ هـ وزار بيت المقدس في رمضان ٨٠٢ هـ وعزل في منتصف المحرم ٨٠٣ هـ ويعين نائبه نور الدين ابن الخلال الذي بذل ما تيسر من المال لبطانة السلطان للحصول على المنصب وفي نفس السنة خرج ابن خلدون مع الناصر فرج سلطان مصر لصد الغزو المغولي عن دمشق التي كانت تابعة لسلطان مماليك مصر وأثناء المعركة علم السلطان أن مؤامرة تدبر في مصر لخلعه وتولية آخر فارتد مسرعا الى القاهرة . ويصف ابن خلدون ما حدث في المعسكر بعد ذلك فيقول : « وجاءني القضاة والفقهاء واجتمعت بمدرسة العادلية واتفق رأيهم على طلب الأمان من الأمير (تيمور لنك) على بيوتهم وحرمهم ، وشاوروا في ذلك نائب القلعة ، فأبى عليهم ذلك وأنكره ، فلم يوافقوه وخرج القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي ومعه شيخ القراء .. فأجابهم الى التأمين وردهم باستدعاء الوجوه والقضاة، فخرجوا اليه متدلين من السور بما صحبهم من التقدمة ، فأحسن لقاءهم ، وكتب لهم الرقاع بالأمان، وردهم على أحسن الآمال . واتفقوا على فتح المدينة من الغد ... وأخبرني القاضي برهان الدين أنه سأل عني ، وهل سافرت مع عساكر مصر أم أقمت بالمدينة فأخبره بمقامي بالمدرسة حيث كنت، وبتنا تلك الليلة على أهبة الخروج اليه، فحدث بين بعض الناس تشاجر في المسجد الجامع ، وأنكر البعض ما وقع من الاستنامة الى القول (أي الاطمئنان الى ما وعد به تيمورلنك وما أخذه على نفسه من الأمان) . وبلغني الخبر في جوف الليل ، فخشيت البادرة على نفسي، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج أو التدلي من السور لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر ، فأبوا على ذلك أولا ، ثم أضحوا لي ودلوني من السور ، فوجدت بطانته (تيمورلنك) عند الباب ونائبه

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي عينه للولاية على دمشق ، وقد التقى ابن خلدون بتيمورلنك وقدم اليه هدية وأحسن الأخير استقباله واستضافه وكلفه بأن يكتب عن بلاد المغرب حتى كأنه يراها ونفذ له أمره ، وان أخبر ابن خلدون سلطان المغرب بعد ذلك بوصف لتيمورلنك فقال : « وهذا الملك « تمر » من زعماء الملوك وفراعنتهم ، والناس منسوبة الى العلم وآخرون الى اعتقاد الرفض ، لما يرون من تفضيله لأهل البيت وآخرون الى انتحال السحر . وليس من ذلك كله في شيء ، انما هو شديد الفطنة والذكاء ، كثير البحث واللجاج ، بما يعلم وبما لا يعلم . عمره بين الستين والسبعين ، وركبته اليمنى عاطلة من سهم أصابه في الغارة أيام صباه ، على ما أخبرني ، فيجرها في قريب المشي ، ويتناوله الرجال على الأيدي عند طول المسافة) . فان كانت الأثرة هي التي دفعته الى لقاء لتيمورلنك فانه قد استطاع أن يكون عينا لوطنه فقدم ثمرة اللقاء الشخصي والعلامة التي تؤدي الى القضاء على تيمورلنك عند اللقاء به .

واسترد ابن خلدون منصب قاضي قضاة المالكية بعد عودته من لقائه بتيمورلنك في شعبان سنة ٨٠٣ هـ . وعزل منه في رجب ٨٠٤ هـ . ثم أعيد اليه في ذي الحجة سنة ٨٠٤هـ الى ربيع الأول من ٨٠٦ هـ وعزل وأعيد في شعبان ٨٠٧ الى أواخر ذي القعدة من تلك السنة أي مكث نحو ثلاثة أشهر ، وامتدت المرة الأخيرة من شعبان ٨٠٨ هـ الى يوم وفاته في السادس والعشرين من رمضان السنة نفسها أي نحو شهر ونصف ، ودفن قرب باب النصر ، ولم يكشف عن مدفنه بعد ، ولا ندري ان كان الزمن قد أبقى على شيء من معالمه .

الاصلاح القضائي لابن خلدون في مصر :

تولى ابن خلدون منصب قاضي قضاة المالكية خمس مرات في الفترة ما بين ٧٨٦ هـ و ٨٠٨ هـ تاريخ وفاته على نحو ما أشرنا ،

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد أعطى المنصب حقه من الأمانة والرعاية فأظهر له حزما وعزما ومجابهة لكل ذي جاه فى وسط اجتماعى ألف غير ذلك وقد اتسم ابن خلدون فى منصبه بأمور أربعة جعلته فى الذروة بين القضاة ، وجعلت الناس لايطيقونه فى عصره.

أولها :

تطبيق مبدأ المساواة بين الخصوم، فسوى بين الصغير والكبير، والأمير والسوقة ، وقد وصف حاله فقال : « وقمت بما رفع الى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت جهدى بما آمننى عليه من أحكام الله تعالى: لاتأخذنى فى الحق لائمة ، ولا يرغنى عنه جاه ولا سطوة ، قويا فى ذلك بين الخصمين ، آخذا بحق الضعيف من الحكمين ، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين «وتبدو قيمة ذلك أن عصر ابن خلدون لم يكن عصر المساواة المطلقة فى الخصومة فى مجلس القضاء ، وقد يؤخذ قول ابن خلدون بعين الشك ولكن اذا وضع فى مقابلة أقوال علماء المعاصرين له يتبين لنا أن قولته عين الحق ، فيقول ابن حجر العسقلانى عن ابن خلدون القاضى : « لم يشتهر عنه فى منصبه الا بالصيانة له» ويقول ابن تغرى بردى فى المنهل الصافى : « باشر القضاء بحرمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته ، ودفع رسائل أكابر الدولة وشفاعات الأعيان فأخذوا فى التكلم فى أمره ولا زالوا بالسلطان حتى عزله » .

ثانيها :

ان ابن خلدون التجأ الى وسائل الاثبات فأنارها بما يحيطها من الشبهات والظلمات وأبعد عنها الذين يفسدون الأحكام ممن اتخذوا الاثبات سبيلا للعيش ، وتزكية الشهود طريقا ، وكانت الشهادة أى البينة هى وسيلة الاثبات الأولى لذلك ففسادها مؤدى حتما الى فساد القضاء فطهرها من التزوير والكذب يقول لنا ابن خلدون مبينا جهده « جانحا الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات ، فقد

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

كان البر منهم مختلطا بالفاجر ، والطيب متلبسا بالخبيث ، والحكام ممسكون عن انتقادهم متجاوزون مما يظهرون عليه من هيئاتهم ، لما ينوهون من الاعتصام بأهل الشوكة ، فان غالبهم مختلطون بالأمراء معلمون للقرآن ، وأئمة فى الصلاة ، يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون لهم الخير ، ويقسمون لهم الحظ من الحياة فى تزكيتهم عند القضاة ، والتوسل لهم فأعضل داؤهم ، وفشلت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ، ووقفت على بعضها فعاقبت بموجب العقاب ومؤلم النكال ، وتأدى الى العلم بالجرح فى طائفة منهم ، فمنعتهم من تحمل الشهادة ، وكان منهم كتاب لدواوين القضاة ، والتوقيع فى مجالسهم ، وقد دربوا على املاء الدعاوى وتسجيل الحكومات ، واستخدموا للأمراء فيما يعرض لهم من العقود بأحكام كتابتها ، وتوثيق شروطها فصار لهم بذلك شغوف (فضل) على أهل طبقتهم ، وتمويه على القضاة بجاههم ، يدعون به مما يتوقعونه من عتبهم ، لتعرضهم لذلك بفعلاتهم وقد يسلط بعض منهم كلمة على العقود المحكمة ، فيوجد السبيل الى حلها بوجه فقهى أو كتابى ، ويبادرون الى ذلك متى دعا اليه داعى جاه أو منحة ، وخصوصا فى الأوقاف التى جاوزت حدود النهاية فى هذا العصر ، وبكثرة عوائله ، فأصبحت خافية الشهرة ، مجهولة الأعيان ، عرضة للبطلان باختلاف المذاهب المتصوبة للحكام بالبلد ، فمن اختار فيها بيعا أو تمليكا شارطوه وأجابوه ، مفتاتين فيه على الحكام الذين ضربوا دونه سدا للخطر والمنع حماية من التلاعب » . أوردنا هذا الكلام مع طوله لأنه يصور لنا تلك العزمة التى اعتزمها ذلك القاضى العظيم ، وتصور لنا العقبات التى تقف فى سبيله وتصور حال العصر ، وتحكم المتصلين بالحكام فى مصاير الأحكام .

ثالثها :

أعمال وتنفيذ الأحكام ، لأنه كان من بين المفتين من يضعفون شأن الأحكام ولاضطراب الأمر بين قضاة

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

أربعة هم المالكى والشافعى والحنفى والحنبلى بفتح ثغرة لاضعاف قوة الأحكام ، فجاء الى المفتين وكبح جماح الذين يبعثون بالأحكام منهم، يصف ابن خلدون ذلك فيقول : « ثم التفت الى الفتيا بالمذهب،وكان الحكام منهم على جانب من الخبرة لكثرة معارضتهم وتلقينهم الخصوم، وفتياهم بعد نفوذ الحكم ، واذا فيهم أصاغر ، يتشبثون بأذيال الطلب والعدالة لا يكادون اذا بهم طفروا الى مراتب الفتيا والتدريس ، فاقتعروها ، وتناولوها بالجزاف ، فاحتازوها من غير مثرب، ولا منتقد للأهلية • • وقلم الفتيا فى ذلك العصر طلق ، وعنانها مرسل يتجاذب كل الخصوم منه رسنا • • فيعطيه المفتى من ذلك ملء رضاه •• متتبعا اياه فى شعاب الخلاف ، فتتعارض الفتاوى وتتناقض ويعظم الشغب ان وقعت بعد نفوذ الأحكام،والخلاف فى المذاهب كثير والانصاف متعذر وأهلية المفتى ، أو شهرة الفتيا ليس تمييزها للحامى،فلا يكاد هذا المدد ينحصر ولا الشغب ينقطع،هكذا قد ظهر ابن خلدون الافتاء من هذا الصنف من المفتين ، وبذلك ضمن للحكم العادل طريقه الى النفاذ من غير تشغيب عليه •

رابعها :

سن ابن خلدون من أبواب التعزير بابا سلكه لم يكن بيد الجلاد، وهو اشارة السخرية على مرتكب الذنب اذا كان من ذوى السلطان ، فكان يعزر بالصفع على القفا اذا كان المتهم من ذوى الجاه أو المتصلين بذوى الجاه ، فكان يديم الصفع حتى يدمى القفا من كثرة ما ناله من مس عنيف •

آثاره وأثره :

لقد كتب لسان الدين بن الخطيب مؤلفات صديقه بن خلدن فقال : رسالة فى المنطق،وأخرى فى الحساب تلخيص لبعض ما كتبه ابن رشد ، شرح لقصيدة البردى ، تلخيص كتاب الفخر الرازى ، شرح لرجز فى أصول الفقه • ولم يرد كتاب العبر ومقدمته لأن لسان الدين الخطيب قتل قبل تأليف ابن خلدون لكتاب العبر • ومن الغريب أن جميع هذه المؤلفات التى ذكرها لسان الدين

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ابن الخطيب والتى لا نشك فى صحتها ليست معلومة الآن ، والأغرب من ذلك أن ابن خلدون نفسه لم يذكرها فى ترجمة حياته ، ويبدو لنا أنها كانت تافهة فى نظره لا تتضمن خلقا وابتكارا ، وانما هى تلخيص وتدريس لكتب لبعض من سبقوه فقد وصلنا منها « اللباب » وهو تلخيص لبعض مؤلفات ابن عربى ، وقد نشره الأب لوسيانو ريبو ، بدار الطباعة المغربية ١٩٥٢ ، و « كتب ورسائل » خاطب بها معاصريه أمثال ابن الخطيب وعبد الله بن زمرك وقد نشرت فى كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا » والتى حققها وعلق عليها الأستاذ محمد تاويت الطنجى (التونسى) وأظهرته لجنة التأليف والنشر ١٩٥٢ م • ولم تصلنا رسالته عن شمال أفريقية التى وضعها خصيصا لتيمور لنك فلم يعثر عليها فى العربية ولا فى ما يمكن أن تكون قد ترجمت اليه من لغات أخرى • أما كتاب « شفاء السائل فى تهذيب المسائل » الذى نشره الطنجى ، استانبول ١٩٥٨ ، والأب أغناطيوس اليسوعى لبنان ١٩٥٩ فهو محل شك فى نسبته الى ابن خلدون صاحب المقدمة ونرجح ما يذهب اليه الدكتور على عبد الواحد وافى من نسبته الى عم والد مؤلف المقدمة ، لاتفاق اسمه وكتبه (وهى عبد الرحمن أبو زيد) مع اسم مؤلف المقدمة وللخلاف الكبير بين هذا الكتاب ومقدمة ابن خلدون فى الأسلوب والأفكار وطريقة العلاج للمسائل • ويعد أهم كتب ابن خلدون « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » وأهم جزء منه هو المقدمة التى تضمنت فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ، والالماع بمقاط المؤرخين • وتعرضت أيضا للعمران ، وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ما لذلك من العلل والأسباب ، وقد قام بتحقيق المقدمة تحقيقا ممتازا الدكتور على عبد الواحد وافى فى أجزاء ثلاثة •

والجديد فى دراسة ابن خلدون التاريخية هو المنهج ، ولعله أول من

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

قال أن التاريخ علم له موضوع ومنهج خاص ينتهى به الى طائفة من القوانين ، وهو علم شبيه بالعلوم العقلية ويخضع لمبدأين هامين : هما مبدأ السببية ومبدأ التطور . وموضوعه الأحداث البشرية ومحاولة تفسيرها تفسيرا علميا يرد كل حدث الى أسبابه وعوامله ، ويقدر ما للتقدم أو التراجع وهما وجها التطور من شأن فى المجتمعات البشرية ، وان أساس المنهج التاريخى لابن خلدون النقد والملاحظة .

ويطيب لنا أن نختم مقالتنا عن ابن خلدون ببعض الأقوال فيه من معاصرين له ، ومعاصرين لنا . يقول لسان الدين بن الخطيب فيه « هو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الخصل ، رفيع القدر ، طاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصى الزى ، عالى الهمة عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لفتن الرئاسة خاطب للحظ ، مقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة : مبذول المشاركة ، عاكف على خلال الأصالة مفخر من مفاخر التخوم المغربية » .

ويصف لنا تقى الدين المقريزى مقدمة ابن خلدون فيقول : « مقدمته لم يعمل مثلها ، وانه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، اذ هى زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول السليمة والمفهوم ، توقف على كنه الأشياء وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود ، وتنبىء عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم وألطف من الماء اذا مر به النسيم » .

ويقول لنا أحمد أمين « ابن خلدون ، ومثله قليل من العلماء ، قريحة متوقدة ، وله قدرة فائقة على الحكم على الأشياء ، وله ابتكار نادر ، ان أخذ عن علم الأقدمين ، فليغذى ذهنه ويهضمه ، وليخرجه شيئا جديدا يمتاز عن علم من سبقه ، لأنه فيه شخصيته وابتكاره وآراءه ، واذا وجد حلقة مفقودة فى سلسلة تفكيره ولم يجد لها أصلا فيما كتبه سلفه

www.alukah.net لا حل من شبكة الألوكة

استطاع أن يخلقها خلقا وينشئها انشاءا فهو جديد فيما أخذه عمن قبله ، وهو جديد فيما اخترعه » .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه عن ابن خلدون : « يظهر أن ابن خلدون فى بحوث مقدمته كان سابقا لتفكير عصره بعدة مراحل ، ولذلك لم يستطع معاصروه ولا من جاءوا من بعده فى مدى القرون الأربعة التالية أن يتابعوه فى تفكيره ، فضلا عن أن يحاولوا تكملة بحوثه وتنقيحها . بل ان المقدمة نفسها قد ظلت طوال هذه الحقبة مجهولة لدى كثير من الباحثين فى الشرق والغرب » .

ويقول لنا محمد بن عبد الله عنان فى كتابه (ابن خلدون ، حياته وتراثه الفكرى ١٩٥٣) : ان ابن خلدون على قدمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون أستاذا لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية ، ويجب أن يقرأ الشباب مقدمة ابن خلدون ، وأن يستعيدها مرارا وتكرارا ، لا ليعجب فقط بما حوت من روائع التفكير والبحث ، ولكن أيضا ليستبقى منها أساليب البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الاجتماعية التى تجول بذهنه وكثيرا ما يتعثر فى التعبير عنها ، ذلك أن مقدمة ابن خلدون اذا كانت ثروة لا تقدر فى تراث التفكير العربى ، فهى ثروة لا تقدر فى تراث البيان العربى .

د : فؤاد عبد المنعم احمد

حب الله طاعته :

لا تدعى حبى وتترك طاعتى ... وتعين أعدائى فأين وفاكا
أرأيت ذا حب دعاه حبيبه ... فيما يعود له فقال : وراكا
أتريد رحمتنا وتعصى أمرنا ؟ ... قل لى بربك : أين منك حياكا
وسعت جميع الخلق رحمتنا هنا ... وبها تخص المتقين هناكا

محمد الخطيب : وحى الحديث